المفاضلة بين النظم والنثر عند أبي حيان التوحيدي

شرح تربوي معمّق ومراجعة عملية لتلاميذ الباكالوريا في تونس

اللغة العربية | شعبة الآداب

تمهيد وأهداف التعلم

هذا الدرس متوافق مع المنهج الدراسي التونسي، وقد أُعيد ترتيبه تربويًا ليساعد على الفهم والمراجعة. لا تُنسب الأمثلة التوضيحية الإضافية إلى مؤلف أو كتاب ما لم ترد إحالة واضحة إليها.

- فهم المفاهيم والأفكار المركزية في الدرس.
- التمييز بين الشرح والتحليل والتقويم بحسب طبيعة المادة.
- تحويل الفهم إلى إجابة منظمة قابلة للتطبيق في الاختبار.

شرح مادة الدرس

شرح مادة الدرس: المفاضلة بين النظم والنثر عند أبي حيان التوحيدي

يعالج هذا الدرس قضية نقدية تتصل بطبيعة الأدب: هل يستحق الكلام المنظوم منزلة أعلى من الكلام المنثور، أم أن لكلّ منهما خصائصه التي تمنع

الحكم عليهما بمعيار واحد؟ وتنبع أهمية السؤال من أنّ الشعر والنثر صورتان بارزتان للتعبير، لكن اختلاف بنائهما لا يكفي وحده لإثبات تفوّق أحدهما في كل الأحوال. لذلك لا يكتفي أبو حيان التوحيدي بعرض رأي شائع، بل يفتح حوارًا يتيح فحص عناصر المفاضلة والتمييز بين شكل الكلام ومضمونه.

لفهم المسألة، ينبغي الانتباه إلى دلالة كلمتي «النظم» و«النثر». فالنظم هو الكلام الذي ينتظم في أبيات، ويخضع لوزن وإيقاع مخصوصين، أمّا النثر فهو كلام لا يلتزم نظام الأوزان الشعرية، وقد يأتي مرسلًا أو تتوافر فيه وسائل فنية أخرى. ولا يعني هذا أنّ النثر خالٍ من الجمال أو الموسيقى، كما لا يعني أنّ كل كلام موزون جميل أو متين. فالتسمية تحدّد هيئة التعبير العامة، ولا تصدر حكمًا نهائيًا على قيمته الأدبية.

من السؤال إلى بناء الموقف

يأتي النص في صورة محاورة إخبارية: يطرح أبو حيان السؤال، ويتولى مسكويه الإجابة عنه. ويمنح هذا الإطار القضية طابعًا حيًّا؛ فالقارئ يتابع رأيًا يُعرض ويُفحَص بدل أن يتلقى خلاصة جاهزة. كما أنّ السؤال نفسه يكشف عن وجود ميل لدى كثيرين إلى تقديم الشعر على النثر، وهو ميل يحتاج إلى التعليل: ما الذي يجعل المنظوم أفضل؟ وهل تتصل الأفضلية بوزنه، أم بمعانيه، أم بقدرته على التأثير؟

يقوم جواب مسكويه على التمييز بين جانبين. أولهما الصورة الخارجية للكلام، وفيها يمتاز الشعر بانتظامه الوزني. فالوزن يضيف إلى العبارة إيقاعًا محسوسًا، ويمنحها هيئة يسهل تمييزها واستحضارها. ويمكن تقريب ذلك بملاحظة الفرق بين جملة تُلقى في سياق حديث عادي، وأبيات تنتظم على نسق إيقاعي واضح؛ فالإيقاع عنصر إضافي في التجربة الشعرية، وقد يزيد وقع الكلام في السمع.

لكن هذا التميّز لا يثبت أنّ معاني الشعر أرفع بالضرورة من معاني النثر. فالفكرة الواحدة يمكن أن تصاغ في بيت أو في فقرة، وتظل قابلة لأن تكون دقيقة أو مضطربة، صادقة أو غير صادقة، حسنة التعبير أو ضعيفته. لذلك لا يصحّ أن ننسب الجودة إلى الوزن وحده، ولا أن نعدّ كل معنى شعري

أعمق من معنى نثري. إنّ الحكم على القيمة يقتضي النظر في ما يقوله الكلام وكيف يعبّر عنه، لا في شكله فقط.

وحدة الجنس واختلاف الفروع

يستعين مسكويه بالتقسيم لتوضيح العلاقة بين النظم والنثر: فهما فرعان من جنس أوسع هو الكلام الأدبي. والتشبيه بالكائن الحي الذي تتفرع منه أصناف متعددة يقرّب الفكرة؛ إذ لا يلغي اختلاف الفروع اشتراكها في أصل عام. فالشعر والنثر يلتقيان في كونهما كلامًا يحمل معنى ويُصاغ للتعبير والتأثير، لكنهما يختلفان في طرائق البناء وبعض الخصائص الفنية. ومن ثمّ، لا ينبغي الخلط بين اختلاف النوعين وبين وجود تفاضل مطلق وثابت بينهما.

يساعد هذا التصور على تجنّب التعصب لفنّ دون آخر. فقد يفضّل شخص الشعر لأنه يأنس بإيقاعه، وقد يميل آخر إلى النثر لما يتيحه من بسط الفكرة وتفصيلها. غير أنّ الذوق الشخصي لا يكفي وحده لتأسيس حكم نقدي عام. وعلى التلميذ أن يسأل: ما المعيار المعتمد؟ هل نقارن الإيقاع بالشرح، أم نقارن نصًّا بنصّ من حيث وضوح المعنى وقوة الصياغة؟ إنّ ضبط المعيار يجعل النقاش أعدل وأدق.

ويبرز في هذا المقام أنّ المعاني لا تختصّ بجنس أدبي بعينه. فالتأمل في سلوك الإنسان، أو وصف مشهد، أو عرض فكرة، يمكن أن يظهر في الشعر كما يمكن أن يُعرض في النثر. ويتفاوت الكلام في الجنسين بحسب حسن المعالجة وملاءمة العبارة للغرض. قد ينجح النثر في شرح قضية متشعبة بفضل قدرته على التوسع، وقد يوجز الشعر تجربة في صورة إيقاعية مؤثرة. المثال هنا يبيّن اختلاف الوسائل، لا حكمًا نهائيًا بأن أحد الفنّين أصلح لكل موضوع.

خصائص الحوار والحجاج

ينتمي النص إلى الكتابة الحجاجية، لأنّه يعرض قضية قابلة للاختلاف، ويستند إلى تعليل لتدعيم موقف. ويُسهم السؤال والجواب في تنظيم التفكير: يُطرح الإشكال، ثم تُفكّك عناصره، ويُميّز بين الوزن والمعنى، وصولًا إلى نتيجة

متوازنة. وتخدم الأمثلة والتشبيهات هذا المسار، إذ تنقل المعنى المجرد إلى صورة أقرب إلى الفهم. كما أنّ التعليل يربط الحكم بما يسنده، فلا يبدو الرأي مجرّد تفضيل شخصي.

وتظهر كذلك نزعة عقلية تتجنب إصدار حكم متسرّع. فبدل القول إن الشعر أفضل دائمًا أو إن النثر أرقى في كل حال، يحدّد الجواب الجهة التي يمكن منها تفضيل المنظوم، وهي جهة الوزن، ثم يبيّن أنّ المعاني والجودة لا تنحصران فيه. وهذا يفضي إلى موقف وسط لا يمحو الفروق بين الفنين، بل يقرّ بخصوصية كل واحد منهما، ويرفض تحويل خاصية جزئية إلى مقياس شامل.

ولا ينبغي أن نفهم هذا التوازن على أنّ النص ينفي كل إمكانية للمفاضلة. فالمفاضلة ممكنة إذا عُيّن وجهها: قد يكون أحد النصين أمتن لغة، أو أقدر على التأثير، أو أوفق بالغرض. أمّا المفاضلة المطلقة بين النظم والنثر فتتجاهل تنوع المقاصد وطرائق التعبير، وتخلط بين الحكم على جنس كامل والحكم على عمل محدد. ومن هنا تبرز قيمة التمييز بين السؤال النظري عن خصائص الفنّين، والتقويم التطبيقي لنصوص بعينها.

ما ينبغي استيعابه في شعبة الآداب

يفيد هذا الدرس تلميذ شعبة الآداب في بناء قراءة نقدية تتجاوز الانطباع الأول. عند تحليل نص حجاجي، لا يكفي استخراج موقف صاحبه؛ بل ينبغي تتبّع كيفية بنائه: تحديد القضية، ورصد الرأي المطروح، واستخراج الحجج، وبيان وظيفة المثال أو التشبيه، ثم صياغة النتيجة بدقة. وفي هذا النص خصوصًا، يجب المحافظة على الفرق بين تفوق الشعر من جهة الوزن وبين الحكم على قيمة المعنى، لأنّ الخلط بينهما يضعف الفهم.

والخلاصة أنّ النظم والنثر يجمعهما أصل الكلام الأدبي، ويفترقان في طرائق الصوغ وبعض خصائص الأداء. يمنح الوزن الشعر ميزة إيقاعية، لكنّه لا يضمن وحده جودة المعنى أو صدقه أو سلامة بنائه. لذلك يدعو موقف التوحيدي، كما يظهر من المحاورة، إلى نظر متوازن يقدّر خصائص كل فنّ، ويجعل الحكم تابعًا لمعيار واضح وللنص المقروء، لا لتعصب مسبق. وهذه هي القيمة

النقدية للدرس: تدريب القارئ على تفكيك الأحكام، وموازنة الحجج، والتمييز بين الشكل والمضمون.

المفردات والمصطلحات

المصطلح	دلالته في سياق الدرس
الحجاج	تنظيم الأقوال والحجج لإقناع المتلقي أو دفع اعتراض.
المفاضلة	موازنة بين طرفين للكشف عن خصائص كل منهما، لا إصدار حكم متسرع.
الحجة	دليل أو تعليل يسند دعوى ويقوي صلتها بالنتيجة.

منهجية الإجابة في الاختبار

1. حدّد نوع الدرس أولًا: نص، محور، عمل أدبي، أو منهجية تحليل.
2. قدّم الفكرة ثم أسندها إلى شاهد أو مثال من المادة المصدرية، وميّز بين الشرح اللغوي والتحليل الأدبي والرأي الشخصي.
3. نظّم الإجابة في مقدمة وجوهر وخاتمة، واجعل كل فقرة تجيب عن سؤال واضح.
4. راجع المصطلحات والروابط المنطقية، وتجنّب الأحكام العامة التي لا يسندها شاهد.

نموذج تطبيقي قصير

ابدأ من لفظ السؤال أو الفكرة المركزية، ثم اربطها بمحورين من مادة الدرس. أدرج شاهدًا من المصدر، واشرحه، وبعد ذلك قيّم النتيجة في ضوء حدودها

وشروطها. هذا النموذج إجرائي، أما مضمون الإجابة فيتغير بحسب السؤال.

خلاصة المراجعة

قبل الاختبار، راجع عنوان الدرس وإشكاله أو موضوعه، ثم احفظ شبكة المفاهيم والعلاقات والشواهد. لا تكرر عبارات المصدر دون تفسير، ولا تضف قولًا إلى صاحبه من غير إحالة ظاهرة.

المصدر المعتمد: باك3.txt. الملفات المتاحة في المشروع نصوص مستخرجة وليست ملفات PDF مرقّمة؛ لذلك لم تُخترع أرقام صفحات. أي إحالة غير مقروءة في المصدر بقيت على حالها أو نُبّه إليها.